ابحاث تمهيدية لدرس فلاسفة العرب : ١

قابلية العرب للفلسفة

بقلم الخوري يوسف فارس ، من اساتذة كلية القديس يوسف

اذا كانت العلوم بالاجمال كسبية ، اي يحوز الانسان عليها بالدرس والحفظ والنظر ، وتتوافر لديه المعارف على قدر اجتهاده وكدّه ؛ فللاستعدادات الغريزية تأثير لا ينكر في اقتباسها ، وللرغبة الطبيعية دور لا يُهمَل في احراز القسم العظيم منها . ولولا ذاك ، من يشرح لنا تفوّق هذا في الطب وتأخره في الهندسة ، ولع هذا بالشعر ، ورغبة ذاك في التاريخ ؟

وهذا الميل النفساني ، وهذه القابلية الفطرية ، تتعدّى الافراد الى الجماعات والى الشعوب ، فترى الفينيقيين ميالين الى المتاجرة والصناعة اكثر منهم الى الفلسفة التي برز فيها اليونان حتى عدّوا معلمي العالم في هذا العلم . واشتهر الهنود والفرس بالعلوم الصوفية . ونبغ المصريون بالاشغال اليدوية حتى ان ما يُكتشف منها اليوم في الحفريات التي تجري حول قبور الفراعنة يعجز عن مثلها امهر صناعي عصرنا .

فما علينا اذًا لو بحثنا في قابلية العرب للفلسفة ؟ ولا نرانا طارقين بابًا لا يُقرع او سالكين طريقًا لا تؤمّ ، ولقد طالما تكلّم الغربيون عن فلسفة العرب ، ودرس المستشرقون منهم فلاسفتنا . فنقول اذًا : هل هيّأ الله طباع العرب للعناية بالمعارف الفلسفية ، هل لهم في فطرتهم ما يعدّهم لهذه العلوم ، كما لهم مواهب غريزيّة لنظم الاشعار وتأليف الخطب ؟

سؤال يعزّ الجواب عنه بصراحة ، لانّ العقبات تحوم حول الموضوع ، والغوامض التاريخية تحول دون الوصول الى حقيقة امره . لذلك اختلفت فيه آراء النقدة والمؤرخين . فمنهم من يزعم مفاخرًا ان الشرق منبع الحكمة كما

هو مبعث النور ، وان الشعوب الشرقية ، وفي مقدمتهم العرب ، اول من حمل لواءها وازدان بجلالها . ويدعمون رأيهم بالشواهد التاريخية العريقة القدم والشريفة المرجع . يقرأ في الكتاب المقدس في سفر الملوك (٤ : ٣٠) عن سليمان : « ففاقت حكمته جميع اهل الشرق » ، وبهم يعني العرب لانه ذكر بعض العرب المشهورين بذلك . وهي شهادة سامية في نظرهم لا تصادف امامها غير اليقين ، وعندهم ايضاً دلائل خصبة حسية تسمعها الاذن وتقف عليها العين ، وهي مجموع التصانيف العديدة المسبوكة في قالب الشعر ، او الموضوعة في درر النثر ، التي تجعل للعرب مقاماً رفيعاً وسمعة بعيدة بين الشعوب الذين اشتهروا باقوالهم الحكمية وامثالهم الادبية .

اما الفريق الثاني فيذهب في مغالاة معكوسة ، فلا ينكر على العرب الخبرة فيما يتعلق بالفلسفة فحسب ، بل ينفي عنهم المقدرة على التجريد الفكري . ويقولون ان عقول العرب تغلبت عليها المادة حتى انها لا تستطيع ان تفتكر بغير المحسوس . وابن العبري يصرح في تاريخه «مختصر الدول» ، ناقلاً كلام المؤرخ احمد بن صاعد الاندلسي فيقول : « اما علم العرب الذين كانوا يتفاخرون به فعلم لسانهم واحكام لغتهم ونظم الاشعار وتأليف الخطب اما علم الفلسفة فلم يمنحهم الله شيئاً منه ، ولا هيأ طباعهم للعناية به . »

آراء متناقضة واحكام متنافية تجعل السؤال ، كما سبقنا في القول ، مبهماً ، والجواب عنه صعب المنال عسيراً .

بين هذه الآراء المختلفة يقف العقل طالباً اليقين مفتشاً عن الحقيقة . لهذا قبل حلنا لمثل ذا المشكل الوعر يجب ان نحدد ما نفهم بالفلسفة ، وبعد تحديد يزيل كل ابهام ، ويوفق بين آراء كان سبب تشتيتها سوء تفاهم في الاساس .

* * *

اذا فهمنا الفلسفة حسب ما توحيها لنا لفظتها المركبة من كلمتين يونانيتين φιλος « محب » ، و σοφια « حكمة » اي « محب الحكمة » او الحكمة فقط ، لان لفظة φιλος زادها فيثاغورس مدعياً ان الحكمة لا تليق الا بالذات الالهية . فيكون معنى «الفلسفة» الحكمة او الفطنة وسداد الرأي في تسيير الاعمال وسياق

الإفضال نحو غاية ما سامية رفيعة كالشرف والجود والاباء وعزة النفس . حسب هذا التحديد لا شك ان للعرب نصيباً وافراً وارثاً كبيراً من الفلسفة. فشجاعة عنتر ، وكرم حاتم ، ووفاء السموأل ، لا تزال مجداً يعتز به ابناء قحطان وعدنان ، ومثلاً يرويه حتى يومنا بفخار العربي والمعجب به . طبقاً لهذا التحديد يُعذر غلوّ من يرى في العرب أصل الفلسفة . فقبل الاسلام وبعده قد لمعوا واشتهروا بهذا النوع من الحكمة.

وان عنينا بالفلسفة لا الحكمة او الفطنة فقط بل ما نسميه اليوم «الفلسفة العملية» التي تشتمل على المبادي العقلية كنتائج، من دون مقدمات فنية او علمية تأتي بها العقول السامية التي حصلت عليها بالاختبارات الشخصية والملاحظات الفردية، فتؤديها كقوانين وشرائع لسياسة الشعب وسير اعماله ، او كمصادر يرجع اليها الانسان في الاعمال البشرية ؛ فالعرب في الجاهلية والعرب بعد الاسلام كان لهم نصيب وافر في هذا النوع من العلوم ايضاً.

العرب في الجاهلية كانت تعد الحارث بن عباد، وزهير بن ابي سلمى،وطرفة، وعدي بن زيد ، وقس بن ساعدة ، وامية بن ابي الصلت من كبار حكمائها، فمن يقرأ منتوجات هؤلاء المفكرين يجد عندهم الشيء الكثير من الفلسفة العملية. تلك النصائح والحكم التي ، وان لم تكن تبلغ آخر درجات السمو ، فهي نافعة لمن يريد ان يعيش بين بني جنسه دون ان يقع في حبالهم ويذهب ضحية اهوائهم ومطامعهم ، وهي رفيعة اي تدفع من يعمل بها الى ان يحيا شريفاً متزناً . فمن يقرأ كل هذه الاشعار الحكمية ، ويتطلع على الامثال العديدة التي نبغ في وضعها العرب واشتهروا بضربها حتى أصبحت فرعاً من الادب عندهم ، يُقرّ انها ثمرة عقول قادرة على التفكير وجديرة بان تقتبس الفكر «المجرد» بواسطة التجربة والاختبار . وهذه مزيّة من مزايا الفيلسوف وشرط من شروط الفلسفة . فان كان العرب قد بلغوا هذا الرقي في تدريج العقل قبل الاسلام ، فانهم بنده على تكرار الايام والسنين ، ومع احتكاكهم بباقي الشعوب ، مهروا في هذا الصنف من الادب ، واضافوا الى اختباراتهم اختبارات جيرانهم من فرس وهنود وغيرهم. فكان لهم دروس لا يستهان بها في معرفة اطباع البشر ،

ونقد مطايب النفس وذم اهوائها ، وحض الانسان على ان يتحرى من عيوبه ويتزين بالخصال الحميدة . وللعربي اكثر من بقية الشعوب نظر ثاقب في اكتشاف الفضائل ، واظهار المطايب . لهذا نجد بين منتوجات العقل عند العرب شيئاً كثيراً فيما يتعلق بذم الجهل ومدح العلم ، في الصديق الصدوق ، والعدو المداهن ، في المرأة والتحذير من مكرها وخداعها ، في الانسان وطبيعته الضعيفة المتمردة ، مما يشير الى رغبة فطرية وتشوق طبيعي الى مثل هذه الفلسفة التي بلا شك كان منبعها الشرق . فهكذا تظهر لنا مثالاة الذين يُنكرون على العرب كل جدارة طبيعية باشتغال العقل بالمجردات ، وكل مقدرة على الخروج من المادة الى غير المحسوس . فالتاريخ يعلمنا انه منذ القديم كان لسكان الجزيرة اهتمام خاص في الحصول على الحكمة ، ويصور لنا ملكة التيمن آتية من أقاصي بلاد العرب لتسمع حكمة سليمان وتأخذ عنه أسرارها . فاذاً طبقاً للتحديد الذي أعطيناه للفلسفة ، يكون لابنا اسماعيل منها حظ ، ونستطيع ان نقول ان لهم قابلية وافرة لاقتبالها .

* * *

لكن للفلسفة معنى آخر وتحديد اتفق عليه اغلب العلماء فيعرفونها بانها « اسلوب علمي يرد الحوادث والكائنات الى مباديها ومصادرها ، ثم ينقب في اسباب هذه المبادي والمصادر حتى أقصاها . » فان طبقنا هذا التعريف على فلسفة العرب لزمنا الاقرار بانهم مقصرون عن باقي الشعوب في هذه الحلبة وان نصيبهم منها لقليل جداً .

لا نشاهد للفلسفة ، كما حددناها ، من أثر في ما وصل الينا من العصور الجاهلية ، ولا يسعنا ان نقول ان آثارها قد طمست ومتروكاتها قد لعبت بها يد الضياع ، لانه لا شيء يدلنا على امكان وجودها .

نعم بعد الاسلام نشاهد مثل هذه الفلسفة بين العرب ، ولكن من يقف على تاريخها ويطلع على نشأتها في الشرق ، ويتبع سيرها الى الغرب تتضح له اصابة هذه النظرية . ففي التاريخ نعاين العرب يستقبلون هذا العلم بازدراء وغضب ، وتدل الحروب التي عانتها الفلسفة وقاساها الفلاسفة من سائر طبقات

الشيب أنها لم تلاق حظوة في عين العربي. ثم اننا نرى ان من برعوا في الفلسفة واعطوها رونقها لم يكونوا من عنصر عربي . فحجة الاسلام الامام الغزالي ، والطبيب الفيلسوف ابن سينا ، والفارابي ، وفيلسوف العرب ابن رشد ، وابن طفيل ، لم يجر في عروقهم دم عربي ولم يولدوا تحت سماء بلاد العرب. فكانوا فارسيي النشأة وكانوا اندلسيي المولد . فلاسفة العرب ليسوا من العرب ، بل هم اعاجم ! وان وجد بينهم افراد من العرب احرزوا لهم ذكرًا في ذلك كالكندي ، فانه من باب الشذوذ. ومن تآليف هذا الفيلسوف العربي لم يبق الدهر الّا القليل لتحكم على مقدرته ، وقد كانت شهرته خاصة في النقل.

ثم اذا افترضنا ان العرب نبغوا في هذه العلوم ، وكان بينهم ومنهم فلاسفة عظام ، فهذه الفلسفة التي ندّعيها عربية لا تختص بالعرب ؛ ليسوا هم الذين ابرزوها للوجود، بل جلّ ما صنعوا انهم اقتبسوها والاغلب نقلوها عن اربابها اي عن الاغريق. وكان جلّ فخرهم بشروح وتعاليق عنوا في التوفيق بينها وبين العقائد الاسلامية فالابتكارات العربية المحضة قليلة جدًا . ووراء ابن سينا والفارابي وابن رشد نجد افلاطون وارسطو وجالينوس وفرفوريوس وتعاليم المدرسة الاسكندرية . وايضاً في نقل هذه الفلسفة لم يكن الفضل للعرب بل للسوريين وللسريان، لاولئك المترجمين الاطباء آل حنين ، وآل بختيشوع ، الذين كانوا حملة تعاليم اليونان وناشريها في العالم الاسلامي .

وان تساءلنا الآن لِمَ لم تلاق الفلسفة حظوةً في عين العربي ؟ لماذا لم ينبغ بها ولم يعطها شخصيّته كما نبغ في غيرها من الآداب ؟ لماذا لا نقول: « فلسفة عربية » كما نقول مفاخرين: « شعر عربي ». لماذا اخيرًا لم يكن لسكان الجزيرة قابلية لاقتباس الفلسفة ، وما الذي أثّر عليهم حتى ابعدها عنهم مراحل واقصاهم عنها فلوات ؟

من فكر ملياً ذهب يبحث عن السبب ، لا في الدين كما يخال البعض ، لاننا قبل الاسلام لم نشاهد لها من اثر بين العرب ؛ بل في غير ذلك من وضعية البلاد العربية.

السبب، على ما اظن، في البيئة ، فهي لا تشرح فقط الصفات الخارجية التي

يمتاز بها شعب عن غيره ، بل لها تأثير لا يُنكر في الاطباع والاخلاق النفسية. وقد جاهر بهذا الاعتبار علماء كثيرون كابن خلدون ومونتسكيو وغيرهما من الذين وقفوا على آثار البيئة وفعلها في الانسان فقالوا في رأيهم قائلين : « ان الانسان صنيع بيئته فقط ».

وهكذا لو استقصينا عن سبب ولوع الايطالي بالموسيقى وشغفه بالالحان ، لشاهدنا ان سماء ايطالية الصافية الاديم ونجومها البرّاقة الشديدة اللمعان ، واعتدال مناخها مع عذوبة مائها ، وبهاء المناظر الطبيعية فيها ، كل هذا كان عاملاً قوياً لاحداثه عند سكانها اميالاً غريزية لهذا الفن الذي يطلب من صاحبه رقة وعذوبة في الاطباع ، فكان الايطالي صورة بلاده الجميلة تدفعه عذوبتها الى الاحساس الرقيق ، والشعور اللطيف الذي يتجلى عنده بلفته الموسيقية وولعه بالغناء .

وفي البيئة ايضاً نجد شرح نبوغ اليونان في العلوم والفنون اجمالاً ، وتفوقهم في الفلسفة خاصةً . اقليم بلاد الاغريق المعتدل حيث يتوازن الحرّ والبرد ، مناخ البحر المتوسط جعل اليوناني متساوي القوى الغريزية ، وقابلاً لاقتباس جميع المعارف . اما سبب ميله الخاص الى الفلسفة وحبه للاطلاع على الاشياء المجهولة ومعرفة اسبابها فعائد ايضاً الى امر طبيعي . فتح الاغريقي عينه على ما حواليه فشاهد في حضن الطبيعة اموراً مدهشة : رأى العناصر تأتي في بلاده بالمعجزات ، جزر تقوم يوماً على سطح اليمّ ، ويوماً آخر لا يشاهد لها من اثر ؛ جبال تقذف من فيها النار والنفط والكبريت ؛ بروق ورعود ؛ بحر هائج وموج متلاطم . فدفعته محبته الغريزية للعلوم الى حلّ هذه المشاكل وشرح هذه النوامض ، والبحث عن سببها الاول . فكانت الفلسفة ، ذلك النور الذي اضاء دياجير العالم القديم والقرون الوسطى ، ولم تزل حتى اليوم نقتبس من شعاعه.

ومن وقف على موقع الجزيرة العربية ودرس مناخها الطبيعي ، فهم تأثيرها على الاهلين ، على أطباعهم ومزاياهم النفسية.

شمس محيية ترسل على الارض اشعتها كانها من نار فتصهر الاجسام وتجفف العقول . سهول فسيحة من الرمل المحرق لا يعرف الطرف لها من حدّ ، بل اذا تأمل فيها الناظر يخالها تحت أنوار الشمس تارة جنان غناء تسقيها أنهار من لجين

وينابيع من تبر ، وطوراً يظنّ نفوحها وتلالها جبالاً من الذهب وهضاباً من الجواهر والالماس . واذ يقترب تختفي الرؤيا وتتلاشى المناظر ، فيفهم انه كان الضحية السراب .

على هذه الارض الجافة قلّما يقع المطر ، ولكن اذا أدمعت السماء وبكت السحب ، جرت الانهار ، وعجّت السواقي ، وكان سيل عرم . ولا يمضي القليل حتى تكتسي الارض التي سقاها المطر ببساط اخضر من العشب والزهر وتصبح واحة غضّة تتردّد فيها البلابل ، ويسمع في مروجها ثغاء قطعان الغنم . . .

هذا الانقلاب الفجائي ، عدم تعادل العناصر في البيئة ، ولّد عدم توازن في غرائز الاهلين . فنشأ العربي ذا مخيّلة واسعة ، كيف لا وبلاده أرض الخيال ومرتع التصوّرات ؛ ونشأ سريع التأثر له احساس غريب فكان عاطفياً حتى منتهى العاطفة وكان وصّافاً خيالياً . وتأصّلت فيه هاتان القوتان حتى تمرّدتا على العقل ، فلم يستطع ان يستلم زمامهما فكان عدم التوازن العقلي ، حالة لا تصلح للتعاليم الفلسفية . لانه ، وان كانت الفلسفة تتطلّب مخيلة واسعة للنظر الى البعيد واستنباط الافتراضات ، فهي تحتاج خاصة الى ارادة قوية تدفع بصاحبها الى التمحيص والتدقيق ، الى الشغل والتفكير لحلّ الامور الدقيقة ، ولمعرفة اسباب الامور الغامضة . الفيلسوف هو رجل عقل وكدّ اكثر منه رجل احساس وشعور . وهذه صفة لم تتوفّر للعربي المقيم في الفيافي الشاسعة بلاد الخيال والطائش في البيادي القاحلة ، فشغله السعي وراء القوت عن الدرس والتفكير . فكان شاعراً ، وكان خطيباً ، لكنه لم يكن فيلسوفاً .